

تاريخ وأنماط العماثر التقليدية في مناطق الهقار.

History and types of traditional architecture in Hoggar regions.

أحمد داحمي.

- جامعة أمين العقال الحاج موسى أق أخاموك؛ تامنغست (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: ahmeddahmiuniv@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/10/16؛ تاريخ القبول: 2023/12/11؛ تاريخ النشر: 2023/12/18.

الملخص:

رغم ما تتوفر عليه مناطق الهقار من بقايا العمارة التقليدية ضمن شواهد إيكونوغرافية وأثرية وريفية صحراوية ذات انتماءات ثقافية وحضارية موعلة في القدم بداية بما قبل التاريخ إلى العهود القديمة والحديثة، إلا أن دراسة مبانيها ومنشآتها لا تزال على هامش من اهتمامات البحث، إذ لم تول لها أي أهمية إبان حقبة الاستكشافات والبعثات العلمية الفرنسية ولا حتى بعدها.

ويهدف هذا البحث إلى توثيق مباني العمارة التقليدية كمنطلق يفسح المجال أمام إعادة الاعتبار لهذه الآثار من خلال دراسات أكثر شمولية، مما يندرج ضمن تدخلات الحفظ، الصيانة والترميم وإعادة التأهيل، تم تأكيد تاريخ العمارة التقليدية في الهقار الموعول في القدم وتمييطها ضمن منشآت تراثم المحيطين الثقايف والبيئي ومباني تأثرت بالمراكز الحضرية المجاورة ضمن نتائج هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: منشآت؛ مباني؛ عمارة؛ تقليدية؛ الهقار.

Abstract:

Although the Hoggar regions contain remnants of traditional architecture, including iconographic, archaeological and rural Saharan evidence with cultural affiliations and dating back to ancient times, starting from prehistory through antiquities and modern times, The study of its buildings and installations still remains on the fringes of research interests: it was not given any importance in French explorations and scientific missions, nor even after them.

This research aims to document buildings of traditional architecture as a starting point paving the way for a reconsideration of these monuments through more in-depth studies, this is part of preservation, conservation, restoration and rehabilitation interventions. The ancient history of traditional Hoggar architecture was confirmed and was grouped into installations that adapt to the cultural and ecological environment and buildings influenced by neighboring urban centers in the results of this research.

Keywords: Buildings; installations; traditional; architecture; Hoggar.

مقدمة:

يتواجد في المواقع الأثرية والحضرية بالهقار معالم من منشآت ومباني العمارة التقليدية، وتعتبر شاهداً على ماض ضارب في القدم تؤكد آثار مساكن من نهاية ما قبل التاريخ إلى العصور القديمة والإسلامية وصولاً إلى الحديثة، ارتبطت أولى أشكالها باستغلال الملاجئ أسفل الصخور من قبل أهالي العصر الحجري الحديث، استخدموا الحجارة في تهيئتها لتوفر لهم قدراً من الحماية ضد العوامل البيئية، يعود أصل الخيم والأكواخ لمجموعات من مزارعي ورعاة العصر

الحجري الحديث، ورثها عنهم الرحل وأشباه المستقرين بالهقار، أين ظلت مستعملة إلى نهاية القرن الـ20م.

شيّد أهالي الهقار القصبات والمباني تحت الأرضية البسيطة كنمط محلي على حواف مساحات الحقول إبان مرحلة اتساع نطاق النشاط الزراعي القديم بواحة إدلس وتازروك وأبلسة حين شهد الهقار وافدين من أهالي مناطق تديكلت، جانت والسودان، عملوا خلالها على تشييد مبان بتقنيات وتصاميم معمارية معروفة في المناطق التي أتوا منها، فظهرت القصور والمساجد والبيوت المبنية، لا تزال مباني العمارة التقليدية تحت وطأة الجهل بقيمتها الأثرية والتاريخية، ولم تستوف حقا من الأبحاث والدراسات والوقت الذي تشهد وضعا من التدهور نتيجة مختلف العوامل.

تهدف دراسة تاريخ وأنماط العمارة التقليدية ضمن هذا البحث إلى توثيقها، حيث يعتبر أولى التدخلات قصد الحفاظ عليها ومحفظاً لدراسة مشاريع الصيانة والترميم المستقبلية، وتقوم الدراسة على مناهج البحث الوصفي الإنشائي والقياسي والتاريخي. إن اختلاف ملامح العمارة التقليدية وتنوعها بالمنطقة يثير عدة تساؤلات حولها، فما هي أبرز صور العمارة التقليدية في الهقار وما هي تطوراتها ثقافية؟

1- الدراسات والأبحاث:

انكبت البعثات الاستكشافية والعلمية قبل إبان الاحتلال الفرنسي على معرفة جغرافيا الصحراء والهقار، استندت على ما وفرته إشارات مصادر قدامى المؤرخين عن حواضر الصحراء، مراكزها التجارية ومسالك القوافل القديمة التي تربطها بعالمي المتوسطي وإفريقيا

جنوب الصحراء. أنشأت على إثرها خرائط تضمنت بيانات جغرافيا، نباتات وحيوانات وعادات أهالي المنطقة، واستعان المهتمون بمعطيات حملتي هنري دوفيري وفلاترس قبيل تشييد مراكز المراقبة العسكرية الفرنسية، ليتجهوا إلى جمع بيانات في الإثنولوجيا وآثار ما قبل التاريخ وفجر التاريخ لاحقا (Bernezat, 2004:22).

شهدت مختلف ربوع الهقار سلسلة من الاكتشافات الأثرية منذ بدايات القرن العشرين، ارتبطت بادئ الأمر بكتابات تفيناغ والفرنسيين وموقع ما قبل التاريخ (Maitre, 1971:05) ومعالم وآثار فجر التاريخ بيتيت (Saint-Martin, 1999:187)، أين أجريت تنقيبات أثرية عقب 1925 (Reygasse, 1940 :148) إثر مزاعم انتساب المعلم لمدفن أسطورة توارق الهقار تين-هنان استناداً لما دونه الباحث E-F, Gautier و مترجمه M, Benhazera (1908 :78)، نالت بذلك دراسات آثار ما قبل التاريخ وفجر التاريخ القدر الأوفر من الاهتمام، فيما لم تتعد دراسة العمارة الريفية الإسلامية مجرد إشارات باستثناء ما تطرق إليه من أمثال M, Benhazera (1908) حول توارق الشمال و R, Basset حول تاريخ الهقار، نشر غيرهم أمثال H, Lhote (1964) حول طوارق الهقار وإشارات في مؤلف M, Gast و R, Brinas (1968) حول نمط حياة سكان الهقار. لا تتوفر الدراسات المتاحة حول العمارة التقليدية إبان العهد التاريخي القديمة إلى الإسلامية على استنارة واضحة، وبالخصوص حول تاريخ الاستقرار وبناء معالم أثرية لم يبق منها سوى أنقاض متهاوية في ظل غياب المصادر باستثناء الشواهد الأثرية غير المستغلة إلى يومنا هذا أو روايات شفوية مشتتة. تميّزت مسيرة ذلك الانتاج العلمي بغياب

الدراسات المهمة والمتخصصة في ميدان العمارة التقليدية بشتى مناطق الهقار، وبالخصوص بما يتعلق منها بالدراسات الأكاديمية المتخصصة باستثناء دراسات فريدة أجراها كل من ع. كرزبكة (2009)، *K, Arib*، (2002) *P, Pandolfi* (1994) حول المسكن والعمارة لدى توارق الهقار.

2- الإطار المكاني للعمارة التقليدية:

كان الهقار على مرّ الزمن أهلاً بقاطنة ممن عايشوا مظاهر استيطان تشهد عليه مخلفات أثرية من شتى العصور، تأكدت أقدم صورها بملاجئ أسفل الصخور كانت تُهَيَّأ بإضافة ركام على محيطها حسب دراسة *J-H, Hugot* لمواقع آثار ما قبل التاريخ بشمال غرب الهقار (85: Gauthier, et all, 1996)، شيّدوا الأكواخ من ألياف خشب وجذوع النبات (925: Lhote, et all, 1989) كواحدة من بين أقدم أنماط المساكن في مواقع تين-تورها حسب خان ماجليس سنة 1978، اتخذت شكل تهيئات حجرية نصف دائرية إلى دائرية يفوق قطرها 3م، تحتفظ المواقع بآثار حفر لتثبيت دعائم أكواخ شبيهة بتلك المتواجدة في آير بالنيجر حالياً (184: Aumassip, et Onrubia-Pintado, 1994)، كما أثبتت مشاهد فن اهران-تاهليلهي شواهد صريحة حول تركيب خيم مستديرة تتألف من شرائط جليدية مطرزة تلف هيكلاً من تقاطع أوتاد بعارضات مقوسة تبدو حبال تثبيته جلية (3677: Camps, 2001) ضمن رسومات إميدير شمال الهقار (صورة 1) والتي تضمنت تمثيلات الكوخ (صورة 3) على طريقة مساكن الهقار إلى ما بعد الحقبة الاستعمارية.

تم اكتشاف العديد من مواقع للعمارة المبنية في الهقار حال معلم تين-هنان بأبلسة إحدى أبرز شواهد عمارة فجر التاريخ بمنطقة الهقار (Hachid, 2006 :118)، تقع على الحواشي الشمالية من تاسيلي شمال الهقار واحة جوغراف المميزة بتشييد معماري من الحجر الرملي المترابط بملاط طيني كنمط شبيه بقصور تيدككت، فقد خلص الباحثون إلى أنها من نتاج أهالي المنطقة الذين شيّدوا أشكال معالم بالحجارة دون ملاط (الشوشات)، ويتعلّق الأمر بأسباتن المنحدرون حسبهم من الغرامنت الذين شيّدوا مبان شبيهة بمباني فزان في الهقار (Hachid, 2006:120) كقصبه تيت التي أشار إليها Félix Dubois خلال أسفاره مروراً بمناطق وسط وغرب إقليم الهقار (Le Quellec, 2008:188) وقصبه سيلت التي صنّفها H, Lhote بملامحها ضمن القصور الصحراوية الإسلامية.

وتضم المنطقة مباني المراكز الحضرية القديمة ضمن تجمعات سكانية على محيط أتكور، عملت سطة الاحتلال الفرنسي على جعل وادي تمنغست عاصمة لها بإنشاء مقر إداري فيها بعد أن استقرت لعقود بمنطقة تاغوهواوت جنوب شرق مدينة تمنراست الحالية (Bellil, et 1995:96)، ونقلت إليها السلطة ببناء قصر أو صورو أمنوكال موسى أف أماستان وبرج شارل دي فوكو والحامية كنقاط ارتكاز لقطب حضاري صغير يشهد زيادة في عدد المستقرين قبيل عام 1909 حسب ما دونه E-F, Gautier.

3- الإطار الزمني للعمارة التقليدية:

يمتد تاريخ الاستيطان في الهقار إلى عمر موغل في القدم وفق اثباتات تحليل الشواهد الأثرية من خلال دراسة آثار ما قبل التاريخ بمواقع منيت وأمكني، كان قاطنة الهقار يعيشون حينها في ضفاف الأودية وجوار البحيرات النشاطية الواقعة بمنيت وتزروفت إلى غاية الألفية الـ II ق.م (Rognon, et all, 1990:293) قبل أن يتغير استيطانهم مع بداية التصحر الذي أدى إلى شبه استقرار رعاة الماشية والمزارعين (-Allard Huard, et Huard, 1994:7) إبان الألفيتين الثانية والأولى قبل الميلاد وفق دراسة *J-H, Hugot* لمواقع شمال غرب الهقار (Hugot, 1963:165).

لا زلنا نجهل تاريخ العديد من مواقع العمارة المشيدة في الهقار وانتفاءها الحضاري باستثناء مؤشرات توحى إلى صلتها احتمالاً بزمن وحضارة واحات فزان وجرمة إبان عهد الليبيين الغرامنت أهالي الجمل؛ أسلاف قدماء الطوارق المعروفين بأسبنت الذين خلفوا آثارهم بتفدست (Hachid, 2006:118) إبان فجر التاريخ على مدى عدة قرون انتهت بتشييد مدافن أبلسة وأكار (Rognon, et all, 1990:294)، اندمجوا مع ثقافات برقة وفزان، الإثيوبيين والسود قاطني الواحات المعروفين بإشوشان ليشكلوا أسلاف التوارق (Camps, 1974:282) الذين أشار إليهم هيرودوت ضمن فئات الليبيين قاطني الواحات (Lhote, 1984: 142) أو بربر الصحراء في مصادر ابن حوقل (ق 10م) وأهل اللثام لدى ابن خلدون (ق 14م) من قاطني هوارة للدلالة على أهالي الهقار أحفاد تيكسي العرجاء (Dida, 2000:19).

فيما تلاه من صفحات الماضي لا نعلم عن تاريخ عمارة المنطقة سوى القليل المشتت من الكتابات في صفحات المخطوط أو ما تبقى في ذاكرة خازني الروايات الشفاهية التي لم تستغل بالكامل بعد (الشهيري، 2004: 25). تُقرّ روايات أهل كيل-أهقار أن بداية ظهور كونفدراليتهم التاريخية يعود إلى عهد انفصالهم عن أورغن أزجر بعد أن كانوا تحت سلطة امنان الذين عرفهم *H, Duveyrier* كمنحدرين من الشرفاء ذوي الأصول المغربية حوالي 1600م إلى بداية القرن الـ18م (Duveyrier, 1864:1). كان الهقار حينها مركز التقاء طرق التجارة العابرة للصحراء وشريان اقتصادها، مما تطلب التنقل بصفة شبه دائمة وما لم يسمح بالاستقرار وإنشاء الحواضر (Gast, S.D:1)، فكان الساكنة إما مستقرين مؤقتاً أو مرتحلين في مواسم القحط إبان القرنين الـ17م والـ18م (هقاري، 2016: 37-39)، ليأتي عهد سلطة أمنوكال الحاج أحمد أف البكري على الهقار والذي أرسى خلاله قواعد الاستقرار بإنشاء حواضر من قرى زراعية بادئ الأمر في تازروك وإدلس وأبلسة (Rognon, et all, 1990:289) بعدما جسّد فكرة الزراعة على ضفاف الأودية بنظام الفقارات عوض آبار البندول (تانوت) والتي كانت تشغلها الحيوانات (Gast, 1977:215)، وصارت استثماراً كبيراً لدى البدو بممارسة عقود الخمّاسة، واستقطبت الهقار وافدين من المزارعين وعمال البناء تدريجياً (Bourgeot, 1975:15)، وخاصة بعد نقل سلطة الهقار إلى تمنغست عقب تشييد قصر موسى أف أماستان على حواشي شرق وادي تمنغست (Bellil, et Dida, 1995:94).

4- أنماط العمارة التقليدية:

استخدم البناؤون البسطاء والمتخصصون في الهقار مختلف الأدوات والوسائل في تشييد العمارة التقليدية كالجفير أو السلال المصنوعة من ورق النخيل لحمل مواد البناء، ومعاول حديدية طويلة ومطارق صلبة في أعمال الحفر وقلع الحجارة وتكسيورها، وقادومات ومساحي في قلب وخط تربة البناء، واعتمدوا على ما يتوفر في المنطقة من مواد أولية طبيعية كالحجارة والتراب وأخرى من موارد البيئة كأخشاب أشجار برية ومزروعة، وألياف وسيقان نباتات نجيلية برية، هذا إلى جانب الموارد البيئية كجلود الحيوانات المصطادة والمستأنسة، في حين لم يعرفوا إلا استعمال القليل من المواد الأخرى كالجير والمعادن غير المتوفرة لديهم، فشيّدوا بذلك أنماطاً مختلفة ومتنوعة من أشكال العمارة ذات الأغراض والاستخدامات المتعددة.

4-1- الخيم:

عاش أغلب قاطنة الهقار في مساكن الخيم التي تُعرف لديهم بأهكيت الذي تُعتبر من إرث أهالي العصر الحجري الحديث ولا سيما فئات الرعويين (Monod, 1932:128) الذين مثلوا الخيم ضمن مشاهد رسومات سفّار (85: 1996) (Gauthier et all, 1996) وتاسيلي ناميدير شمال الهقار (سيدي محمد إيباه، 2022: 689) ومشاهد إهران-تاهليهي التي تُظهر نسوة منشغلات بتركيب خيمة، مما يُعتبر شاهداً أثرياً على إرث ثقافي متوارث عبر الزمن وصولاً إلى التوارق (Aumassip, 2001:36)، (صورة 1).

تتألف الخيم من غلاف مصنوع من جلود الأغنام والماعز وجلود وعل الجبل وأوتاد وعارضات من خشب أشجار محلية، يأخذ غلاف

الخيمة لونها أحمر يميل إلى السمرة نتيجة الطلاء، تُدمج فيه عشرات الجلود تبعاً لحجم الحيوان الذي استخرجت منه وأبعاد الخيمة المراد نصبها (Arib, 2002: 58) بعد شق حفر تُثبت بها الأوتاد العمودية، لتُشدّ بأخرى أفقية بواسطة حبال من الجلد، يُلبس هيكل الخيمة بالجلد ليكتمل تركيبها وتُوَثَّقُ بلواحق من حصير ألياف نباتية يدعى أسبر كواجهة داخلية محيطة بجوانبها، إلى جانب عمودين يتوسطانها لحمل الأفرشة والأغطية، وملحقات أخرى من حاويات جلدية للملابس والأواني ومواد الزينة، سرير من أغصان الأشجار (كرزيكة، 2009: 53)، بينما تحتل باقي المصنوعات كالمهراس وقرب الماء وحاوية الحليب جزءاً من الفضاء المخصص للنساء، ويُخصص الآخر لإيداع مستلزمات الرجال من الأسلحة والسروج، فيما يحاط مدخل الخيمة بما يشبه فناء من أوتاد يلفها شريط سور خشبي (صور2).

4-2- الأكواخ:

أطلق الوافدون إلى الهقار قبيل القرن العشرين تسمية الزربية على الأكواخ التي يُطلق عليها شبه المستقرين التوارق تسمية أكبر، كانت إحدى أنماط المسكن السائد حينها، إذ يمكن مغادرتها والعودة إليها وقت الحاجة دون أن يتم تفكيكها، طالما يمتن غالبية ساكنيها شكلاً من أشكال الزراعة التقليدية الموسمية فيما يمارسون رعي الماشية تبعاً للظروف (Pandolfi, 1994:27).

يتم انشاء هذا النمط من المسكن في الهقار باستخدام موارد الطبيعة النباتية محلية وأخرى مستوردة من مناطق بعيدة نسبياً، تتكون أساساً من أعمدة وجذوع ذات أقطار وارتفاعات مختلفة من شجرة الأثل

Tamarix المعروف محلياً بتبركات وأزوا، يضاف إليها موارد نباتية أخرى من أصناف القصب البري المملوء والمفلطح بعد تجفيفها وتسويتها، يستخدم جلد الابل غير المدبوغ في عمليات الربط والنسج قصد شد الأعمدة بعارضات هيكل المسكن، فيما تُشد أسواره بأحزمة عرضية وتُربط بواسطة ألياف من القصبيات الصغيرة والمعروفة بالقي بعد نعه في الماء ودكه.

تتخذ الزربية شكلاً مكعباً إلى أسطواني وفق الهيكل، ينتهي بتقبب أو مخروط يمثل السقف (صورة4)، يتم غرس الأوتاد الأربعة في زوايا الهيكل ووتد واحد أو وتدين كركيزة مركزية ضمن حفر عميقة تُدك فيها الحجارة لتثبيتها، يُغرس صف من لحافات سيقان القصب البري المنسوج ضمن خندق كلحاف خارجي للهيكل يُعزز أحياناً بأغصان الأثل ليحيط بالهيكل من جميع الجهات، تُشد باستخدام جلد الابل أو ألياف نبات يُعرف بالقي بواسطة حزام أو حزامين ليكتمل الإنشاء، يُنجز العمل تحت توجيهات أهل الخبرة ممن يُعرف بأمغار-وان-إريس المكلف بمحيط الكوخ وأمغار-وان-أفلاً المكلف بالسقف (كرزيكة ، 2009: 54).

يرتبط تصميم مسكن الأكواخ بوظائفه وعدد أفراد العائلة، إذ يتم ادماج أكثر من كوخ في المسكن الواحد، يحيط به سور من نفس المواد يُعرف بإفارآن، يُسقف عند الحاجة في شكل ظلة، يتواجد المخزن المكشوف ككوخ مسقف دون لحاف خارجي، يضم طاولة خشبية تُوضع عليها المؤن وتُعلق أخرى أسفلها، يكون في الغالب قرب أكواخ مخصصة للأبناء أو لاستقبال الضيوف (صورة5).

4-3- المباني شبه تحت الأرضية:

تُشكل المباني شبه تحت الأرضية إحدى الأشكال القديمة من أنماط العمارة المبنية بالطين والحجارة والتي سبقت البناء بالطوب في المنطقة حسب المصادر المتوفرة، تُعرف بمسميات مختلفة في الهقار تبعاً لتقنيات ومواد بنائها وأنماطها كأبوك، أبوغي والداموس، تتألف البنايات تحت الأرضية المشيئة بالحجارة الجافة من حفرة منحوتة تحت الأرض، يتوجها بناء حجري يعلوه السقف، تتنوع أشكال الحفرة ما بين المستديرة والمستطيلة والمربعة، ويتراوح الجزء المشيد فوق مستوى الأرض ما بين 0.3م إلى ما لا يتعد 1م، لا تختلف هذه المباني عن الأكواخ الدائرية ذات السقف المخروطي في السافانا الإفريقية، يرجع تاريخ المساكن شبه تحت الأرضية في العالم إلى العصر الحجري الحديث، فقد وجدت آثارها القديمة في مناطق الأينو والإسكيمو الحاليين، ولا تزال تشيّد في شمال أوراسيا من كاريليا إلى شرق سيبيريا ولدى بعض الهنود في أمريكا (Leroi-Gourhan, 1943:310) وقرى الساحل الإفريقي كقولتا العليا بسفوح المنحدرات التي تبدو فيها أشبه بالكهوف، أين يشيّد الأهالي نمطين مختلفين منها، يتخذ الأول شكلاً أسطوانياً من القش والثاني شكلاً رباعي الزوايا، يعتبر معظم المؤلفين المنشآت الدائرية محلية بإفريقيا جنوب الصحراء وخاصة بالمزارعين السود، بينما استورد ذو الشرفة من دوائر ثقافات البحر الأبيض المتوسط (Le Moal, 1960:194)، تشبه بذلك المباني شبه تحت الأرضية بالهقار إلى حدّ التماثل.

يختار أهالي الهقار المواقع المرتفعة على التلال والمنحدرات قرب ضفاف الأودية لإنشاء الدواميس بما يتماشى ونمط معيشة الفئة التي تقطنها من أشباه المستقرين، يستخدمون الطين كملاط رابط بين الحجارة في بناء جدران الداموس، يُبنى الداموس فوق الأرضي الأسطواني المبني بحجارة متراسة إما خال من الملاط (صورة6) أو بملاط الطين (صورة7) شكلاً مخروطياً أو مقبباً يعتمد سقفه على عارضات تُثبت بأعلى الجدران لترتفع متجهة نحو مركزه، تعلوها أصناف من النباتات النجيلية منسوجة غالباً ليُغطيها الطين نادراً، فيما يبنى تحت الأرضي لِيُسَقَّفَ بشكل مسطح(صورة8)، يعتمد التسقيف على عارضات من جذوع أشجار الأثل *Tamarix* المعروف محلياً بتبركات وأزوا، تعلوها أنواع من القصب يُغطيها الطين ثم التربة الرملية، بينما يؤدي مدخل واحد متدرج نحو الأسفل إلى داخل المبنى.

لا تتعدى استخدامات الداموس اغراضاً نفعية من تخزين المنتجات الزراعية في غياب المخازن المظمورة المعروفة بإغند محلياً؛ الإقامة وفترات الاستراحة من أعمال الزراعة كون غالبيتها مقامة على طرف جانبي مرتفع من التلال المجاورة للحقول، مما يكسبها حالة من التمويه حيال الغارات والغزوات التي سادت فترات استخدامها.



صورة1:

تمثيل خيمة

برسومات إميدير

(إيباه، 2022).



صورة 2:

خيمة مكتملة بتازروك
(كرزيكة، 2009).



صورة 3:

تمثيل كوخ
برسومات إميدير
(إيباه، 2022).



صورة 4:

كوخ ومحزن
بتاهيفت
ضواحي الهقار



صورة 5:

كوخ من عدة
وحدات بتاهيفت
ضواحي الهقار.



صورة6:

داموس فوق

الأرضي بتازروك

(كرزيكة، 2009).



صورة7:

داموس فوق

الأرضي بتازروك

كرزيكة، 2009).



صورة8:

داموس تحت

الأرضي بتازروك

ضواحي الهقار.

4-4- المباني الترابية:

لم يُعر الأثاريون الغرب الكثير من الاهتمام للمباني الترابية إلى غاية 1980م حين صار يُعنى في أدبيات التراث الأثري بكل ما هو مشيد بالطين منفرداً أو ممزوجاً بالحجارة والخشب كمساكن يعود تاريخها إلى نهاية عصور ما قبل التاريخ (روشازيل، غازيل، 2015:16). ورثت العمارة الترابية في الهقار ملامح محلية واكتسبت أخرى من مناطق تيدكلت وتوات التي وفد منها البناؤون الذين وضعوا أسسها بالمنطقة، حين كانت المساكن المحلية إما في منشآت الخيم والأكواخ أو مباني قصبات تعيش حالة من القطيعة مع محيطها ومباني الدواميس ذات الطابع الشبيه بمساكن الساحل السوداني.

شهد الهقار منذ ما يعقب الفتوحات الإسلامية تشييد مباني القصبات من النمط الصحراوي على نطاق شاسع في الصحراء على غرار قصبتي سيلت وتيت التي تُرجح التواريخ أنها بنيت في القرن الـ 16م قبل هجرتها (Gast, 1968:50)، خلص الباحثون إلى أنها تنحدر من عمارة المعالم المشيدة بالحجارة دون ملاط على يد معاصري الشعوب السريانية المتواجدة بالصحراء المجاورة للهقار تحت مسمى اسباتن، ينحدر هؤلاء حسبهم من الغرامنت الذين شيّدوا مباني فزان على غرار ما اكتشفه *E.F, Gautier* و *H, Lhote* و *M, Reygasse* من مباني تُعد شاهداً على مرحلة ظهور ما يعرف محلياً بتاغرمت (Hachid, 2006:95) على غرار قصبة تيت (صورة 9) التي أشار إليها *F, Dubois* خلال أسفاره بالهقار سنة 1907 ضمن آثار العمارة القديمة بالمنطقة والتي لم يتبق منها سوى أنقاض (Le Quellec, 2008:187) وقصبة سيلت (صورة 10) التي صنّفها

H, Lhote ضمن القصور الصحراوية الإسلامية وقصبة جوغراف (صورة 11) المجهولة حينها.

لم يتبق من مجمل القصبات المتواجدة في الهقار سوى أنقاض متهاوية ومهدّمة يصعب التعرف على تصميمها الأول، إلا أنها لم تخرج عن طابعها النمطي المعروف في قصور واحات الصحراء. تُعد القصبات بنايات كبيرة تتخذ شكلاً مستطيلاً، تتميز بارتفاع نسبي لأركانها الأربعة كغرف مستقلة (أبراج) مراقبة لتحقيق غرضها الدفاعي، تحتوي في الغالب على مدخل واحد، يضم الطابق الأرضي أركاناً لمسكن تتخللها أزقة مسقفة ويُخصص قسم منه لحظائر الدواب، بنيت أغلب قصبات الصحراء الترابية بمزيج من الحجارة والطوب والطين (Montagne, 1930:347). تتألف قصبات سيلت، جوغراف، تيت وسليسن بالهقار من طابقين ولا نستطيع أن نجزم أو ننفي غيرهما، بنيت جدران طابقها الأرضي بأبعاد أكبر سمكا من جدران الطابق العلوي، استعملت حجارة مسطحة ومونة الطين في قصبتي جوغراف وتيت، في حين استعملت الحجارة والطوب في قصبتي سيلت وسليسن بتقنيات أحجار الركة الموجهة والعشوائية.

لا يُعبّر القصر في الجنوب الجزائري عن المعنى الشائع، فهو من مدائن الصحراء التي تشمل المراكز التاريخية للواحات الجزائرية، يضم بذلك التجمعات السكنية التقليدية المؤلفة من وحدة أو عدة وحدات مدعّمة ومحاطة بجدران خارجية لتشكل ما يشبه جزراً من المساكن (تركي، 2013: 117) ذات الخصائص المعمارية من تصميم يضم أروقة، حجرات، بهو وصحن يتوسطه دون تسقيف، يقوم بناؤه على جدران

سميك يتناقص بارتفاعه عن الأرض، يتخذ أشكالاً من امتدادات مستطيلة ومربعة، يصعب تعيين حدوده من الخارج نتيجة تداخل مساكنه، وقلما يتعدى الطابق الأرضي، يستعمل في بنائه مواد من الحجارة والطوب والطين(عقاب، 2007: 69). تعود بدايات بناء القصور في الهقار إلى القرن الـ 20م، فقد بُني قصر صورو الحاج أحمد البكري في تازروك بطلب من ابنه سيدي محمد بن عثمان بن البكري سنوات بعد معركة تنيسا بتيت، متأثراً في فكرته ونمطه المعماري بصورو موسى أق أمستان المشيد ضفاف وادي تمنراست(Le Quellec, 2008:187).

تترجع قصور الهقار محدودة العدد على مساحة ذات شكل مستطيل من عشرات الأمتار، تقع جميعها فوق تلال صغيرة على ضفاف الأودية، لا تزال بعض أجزاء منها قائمة إلى يومنا هذا ومحافظة على ملامح وظيفتها كمساكن عائلية لذوي الشأن والسلطة، رغم بعض التشويهات والتغييرات التي طالتها مؤخراً نتيجة هجرتها بشكل كلي حال صورو موسى (صورة12) وصورو الحاج أحمد(صورة13) أو نسبياً حال قصر الحاج داحمان بتازروك، يبدو من خلال الملاحظة أن تخطيط كلا القصرين كان تبعاً لدراية ومعرفة بأساليب معمارية متأثرة بالمناطق المجاورة، كانت تؤلف في مجملها مظهراً مألوفاً من العمارة الصحراوية ذات المباني متعددة المداخل والأزقة الضيقة والتصميم القائم على طابقين.

تُعرف المساجد بتمجّده في لغة التوارق أهالي الهقار، تعد على العموم من أبرز معالم تحديد هوية المدن التاريخية والأثرية، كان تخطيط المساجد الأولى بسيطاً، يتكون من مساحة مربعة أو مستطيلة

محاطة بسور وبها ظلة، يتركز سقفها على أعمدة مصنوعة أو مأخوذة من جذوع النخيل أو عمد من عمائر قديمة (مزراق، 2018: 123). تكتسي المساجد في القصور الصحراوية نفس المكانة والأهمية، ليتخذ منبرها وجهة محددة ومعلمة باتجاه القبلة دوماً، يقوم على هندسة خاصة عمادها أروقة مفصولة بالأقواس، يكون عددها تبعاً لطول الأروقة، أما عدد الأروقة فيكون تبعاً لعرض المسجد، يُشكل المنبر من جدار نصف دائري في موجه نحو القبلة.

بُني مسجدان في تازروك بالهقار يتواجد الأول مسجد أغرم شارف في موقع قطع الواد (صورة 14) والثاني مسجد الطالب حامود (صورة 15) في موقع أبتول، يتميز تصميمهما بشكل مستطيل يقع في منتصف جدار قبليتهما محراب نصف مستدير، يليه رواقان يشكلان الأساكيب، يخلو مسجد أغرم شارف من الأعمدة التي تُشكل البلاطات خلاف مسجد الطالب حامود، هذا الذي يحتوي أيضاً على منبر مفقود في الأول، يتألف من درجتين على ارتفاع محدود، يخلوان كذلك من المئذنة والصحن والقباب المألوفة في العناصر المعمارية للمساجد.

تُعرف البيوت لدى توارق الهقار بأغرم أو تيفهمين، تشمل مساكن بسيطة مؤلفة من غرف واسعة مبنية بالحجارة والطين، لم تكن تتعدى حجرتين وفضاء نادراً بادئ الأمر (صورة 16)، قبل أن تتطور لتضم في الغالب ركناً مخصصاً للمطبخ وجزءاً مخصصاً للجلوس العائلي ضمن القسم الأول، أما القسم الثاني فيحوي فضاءاً للتخزين ووضع مستلزمات الإقامة والشغل وجزءاً مخصصاً للنوم، يتخذ المخطط العام للمسكن شكلاً مستطيلاً يتغير عرضه تبعاً لطول جذوع الأشجار المستعملة

كعارضات حاملة للسقف، يحوي مدخل وفتحة أو أكثر للتهوية
(كرزيكة، 2009: 53)، تطورت البيوت الترابية تبعاً للحاجة والذوق
ليُضاعف فيها عدد الحجرات ويُضاف البهو (أخام).



صورة 9:

بقايا قسبة
تيت بضواحي
الhqar.



صورة 10:

بقايا قسبة
سيلت ضواحي
الhqar.



صورة 11:

بقايا قسبة
جوغراف
بإميدير شمال
الhqar
(إيباه، 2022).



صورة 12:

مبنى صورو

موسى أف

أماستان

بتمنغست.



صورة 13:

مبنى صورو

الحاج أحمد أف

البكري بتازروك



صورة 14:

مبنى مسجد

أغرم شارف

بتازروك.



صورة 15:

مبنى مسجد
الطالب حامود
بتازروك.



صورة 16:

بقايا
مسكن الزاوي
بتازروك.

خاتمة:

أكدت الشواهد الأثرية أن بدايات منشآت العمارة التقليدية تعود إلى نهاية عصور ما قبل التاريخ، فقد أثبتت من جهتها الشواهد الإيكولوجية وجرافية بإمدير شمال الهقار حضور تمثيلات للخيم ضمن مواضعها وأخرى للأكواخ ذات الأسقف المقببة، تُبدي أشكالاً أشبه بمساكن أهالي الهقار، كما أثبتت المعالم الأثرية من جهتها اختصاص المنطقة في تشييد مباني الحجارة الجافة منذ فجر التاريخ.

شُيّد عدد من القصبات في تيت، سيلت، جوغراف وسليسن بالهقار، وهي ذات سمات شبيهة بمباني واحة جرمة وبالقصبات الإسلامية الصحراوية في مناطق الجوار كتديكلت وتوات، ولو أن

إطلاق حكم انتمائها للعصر القديم وارد والحكم عليها كإرث من العصر الإسلامي سابق لأوانه دون اللجوء إلى التنقيب الأثري وتحليل المقتنيات، كما تنتشر في شتى ربوع المنطقة المباني تحت الأرضية البسيطة كنمط محلي على حواف مساحات الحقول إبان مرحلة اتساع نطاق النشاط الزراعي القديم بواحة إدلس وتازروك وأبلسة حين شهد الهقار وافدين من أهالي مناطق تديككت، جانت والسودان، عملوا خلالها على تشييد مباني بتقنيات وتصاميم معمارية معروفة في المناطق التي أتوا منها، فظهرت بذلك القصور والمساجد والبيوت المشيدة من التراب.

رغم الخطوات التي خطتها الدراسات على مدى أكثر من قرن لا تزال مبان العمارة التقليدية بالهقار مجهولة ومتجاهلة على الرغم من قدم تاريخها وتنوع مواد إنشائها، وأنماطها واختلاف وظائفها القديمة ضمن منشآت ذات أصل محلي يتلاءم مع المحيطين الثقافي والبيئي ومباني تأثرت بالمراكز الحضرية المجاورة ضمن نتائج هذا البحث.

تُعاني مجمل معالم منشآت ومبان العمارة التقليدية التي تم توثيقها ضمن هذا البحث من شتى مظاهر التدهور حدّ تحولها إلى أنقاض متهاوية، وعليه نقدم جملة من مقترحات نوصي من خلالها بإجراء أعمال للجرد الشامل من قبل الجهات الوصية بالحفظ كديوان الحضيرة الثقافية للأهقار قصد إدراجها ضمن قائمة الجرد، ثم تعيين القطاعات المحفوظة، فيما يقع على الهيئات المحلية التي تقع في مجال نشاطها العمل على تقديم الدعم، ولا سيما من فئة الباحثين الأكاديميين قصد إنشاء

بيانات من شأنها تقديم تفعيل مشاريع الصيانة والترميم وإعادة البناء والتأهيل ضمن الآفاق المستقبلية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إيباه سيدي محمد، (2022). دلالات التنوع الثقافي والحيواني من خلال الفن الصخري بإيميدير (الصحراء الوسطى الجزائرية). أطروحة دكتوراه في آثار ما قبل التاريخ، جامعة الجزائر-2 بوزريعة، الجزائر.
- 2- تركي ياسمين، (2013). من تراب وطن. ترجمة مليكة زوية، دليل عمارات التراب في العالم، وزارة الثقافة، الجزائر.
- 3- رو شازيل كلير-آن وغازيل هاندي، (2015). «العمارة الطينية: مبادئ وتنوع الاستعمالات» ندوة حول العمارة الطينية ببلاد المغرب، 2-4 جوان 2015 بتازولت، المركز الثقافي لامبيز، ص16-17.
- 4- الشهيري سعيد، (2004). «الطوارق في الصحراء الإفريقية الكبرى». جريدة الرياض، المجلد: 12978، العدد: 02، السنة 2004، ص19-38.
- 5- عقاب محمد الطيب، (2007) مساكن قصر القنادسة الأثرية، دراسة أثرية معمارية. ط1، دار الحكمة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر.
- 6- كرزليكة علي، (2009). تطور أنماط المساكن عند توارق أهقار: دراسة تاريخية أثرية عمرانية. رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر-2 بوزريعة، الجزائر.
- 7- مزراق محمد، (2018). العوامل البيئية وآثرها على العمارة وال عمران في منطقة تيديكلت الشرقية بولاية تمنراست، دراسة أثرية. رسالة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر-2 بوزريعة، الجزائر.
- 8- هقاري محمد، (2016). دور منطقة الهقار في تجارة القوافل الصحراوية ما بين القرن الـ 17 والـ 18م. مجلة آفاق علمية، المجلد: 4، العدد: 11، 2016، جامعة تامنغست، ص19-41.

9- Allard-Huard Léone, et Huard Paul, (1994). *Les secteurs du sous-continent saharien et du Nil, Art rupestre du Sahara. Dossiers d'Archéologie*, n°197, p.70-83.

- 10- Arib Karim, (2002). *Ahaggar, aux origines du patrimoine architectural*. Ed. Dalimen, Alger.
- 11- Aumassip Ginette, (2001). *L'Algérie des premiers hommes*. Maison des sciences de l'homme, Paris.
- 12- Aumassip Ginette, et Onrubia-Pintado Jorge, (1994). *L'habitat préhistorique au Sahara. Milieux, hommes et techniques du Sahara préhistorique*, Le Harmattan, Paris, p.179-191.
- 13- Bellil Rachid, et Dida Badi, (1995). *Les migrations actuelles des Touareg du Mali vers le Sud de l'Algérie, Études et documents berbères*, 13, p.79-98.
- 14- Benhazera Maurice, (1908). *Six mois chez les Touareg du Hoggar*. Adolphe Jourdan, Alger.
- 15- Bernezat Louis Jean, (2004). *Immidir: la Tassili oubliée*. Edi Glénat, Grenoble Cedex, Paris.
- 16- Bourgeot André, (1975). *Analyse des rapports de production chez les pasteurs et les agriculteurs de l'Ahaggar. Pastoralism in tropical Africa*, Th. Monod éd., I.A.I. Londres, Ibadan, Nairobi.
- 17- Camps Gabriel, (1974). *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*. Doin, Paris.
- 18- Camps Gabriel, (2001). *Iheren (ou Eheren)*. *Encyclopédie berbère*, 24, Edisud, Aix-en-Provence, p.3677-3683.
- 19- Dida Badi, (2000). *Touaregs de l'Adagh des Ifoughas*. Mém. Du Magister, Univ. Mouloud Mammeri, Tizi Ouzou.
- 20- Duveyrier Henri, (1864). *Les Touareg du Nord*. Challamel, Paris..
- 21- Gast Marceau, (1968). *Alimentation des populations de l'Ahaggar, Etude ethnographique. Mém. du C.R.A.P.E.*, VIII, Ed., A.M.G, Paris.
- 22- Gast Marceau, (1977). *Modernisation et intégration : les influences arabo-islamiques dans la société des Kel Ahaggar (Sahara algérien), Les problèmes agraires au Maghreb*, CRESM, CNRS, Paris, p.203-219.
- 23- Gauthier Yves, et all., (1996). *Art du Sahara, Archives des sables*. Ed. Seuil, Paris.
- 24- Hachid Malika, (2006). *Du nouveau sur le monument d'Abalessa (Ahaggar, Algérie), De la date de l'introduction du dromadaire au Sahara central du personnage d'Abalessa et des inscriptions rupestres libyco-berbères. Sahara*, 17, p.95-120.
- 25- Hugot Henri Jean, (1963). *Recherches préhistoriques dans l'Ahaggar nord-occidental, (1950-1957). Mém. du CRAPE*, I, Alger, 207p.
- 26- Le Quellec Louis Jean, (2008). *L'exploration saharienne de Félix Dubois en 1907, Cah. de l'A.A.R.S*, n°12, p.161-189.
- 27- Le Moal Guy, (1960). *Les habitations semi-souterraines en Afrique de l'Ouest. Jour. de la Société des Africanistes*, t. 30, fasc. 2, p.193-203.

- 28- Leroi-Gourhan André, (1943). *Évolution et techniques, L'homme et la matière*. Vol. I, Albin Michel, coll. *Sciences d'aujourd'hui*, (Réimpression du vol. I en 1948), Paris, 367p.
- 29- Lhote Henri, (1984). *Le Hoggar espace et temps*. Armand colin, Paris.
- 30- Lhote Henri, et all, (1989). «Art rupestre ». *Encyclopédie berbère*, 6, Edisud, Aix-en-Provence, p.918-939.
- 31- Maitre Pierre Jean, (1971). *Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar. Téfédést centrale. Mém. du CRAPE*, Alger, 224p.
- 32- Montagne Robert, (1930). *Les Berbères et les Makhzen dans le sud marocain*. Felix Alcan, Paris.
- 33- Monod Théodore, (1932). *L'Adrar Ahnet, Contribution à l'étude archéologique d'un district Saharien. Mém. de l'institut de l'ethnologie*, T.19, Paris, 196p.
- 34- Pandolfi Paul, (1994). *Habitat du Hoggar, Entre tente et maison: la hutte*. Ed. Karthala, Paris, 128p.
- 35- Reygasse Maurice, (1940). *Fouilles de monuments funéraires de type «chouchet» accolés au tombeau de Tin Hinan à Abalessa. Bull. de la Société Géographique et Archéologique d'Oran*, p148-166.
- 36- Rognon Pierre, et all, (1990). *Ahaggar. Encyclopédie berbère*, 8, Edisud, Aix-en-Provence, p.269-305.
- 37- Saint-Martin Jean, (1999). *Félix Dubois, 1862-1945. Grand reporteur et explorateur de Panama à Tamanrasset*.

